

عنوان المقال: ميكيل دي ثريانتس والصراع
الإسلامي المسيحي بالبحر الأبيض المتوسط
خلال القرن السادس عشر

الكاتب: أ/ وفاء المصمودي
جامعة محمد الخامس/ الرباط/ المغرب

البريد الإلكتروني: m2ouafaa@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2019/01/07 تاريخ القبول: 2019/02/21 تاريخ النشر: 2019/03/28

ميكيل دي ثريانتس والصراع الإسلامي المسيحي بالبحر الأبيض المتوسط

خلال القرن السادس عشر

**Miguel de Cervantes and the Islamic-Christian struggle in the Mediterranean
during the XVIth century**

الملخص بالعربية:

عاصر الأديب ميكيل دي ثريانتس الصراع القائم بين المسيحية والإسلام خلال القرن السادس عشر، وشارك في مجموعة من المعارك بين الطرفين، كما تعرض للأسر من طرف قرصنة مدينة الجزائر. وقد خلد هذا الأديب مشاركته في هذا الصراع في كتاباته خاصة رواية "الدون كيجوته" الذي تمكن من خلاله من نقل فصول من كل من معركة ليبانتو ومعركة حلق الوادي، كما صور حياة الأسرى المسيحيين ومعاناتهم، وما ارتبط بذلك من استنزاف للقوة البشرية والمالية للبلدان الأوروبية..

كلمات مفتاحية: ميكيل دي ثريانتس، الدون كيجوته، ليبانتو، القرصنة، الأسر، العلوج، الفدية، تنظيم الثالوث المقدس.

Abstract :

The writer Miguel de Cervantes witnessed the conflict between Christianity and Islam during the sixteenth century, from his participation in a serie of battles between the two sides, and from his experience as a captive in Algier. This writer immortalized this conflict in his writings, especially the novel "Don Quichotte", in

which he recorded both the Battle of Lepanto and the Battle of the Gouletta events, as well as the lives of the Christian captives and their suffering, and the associated depletion of the human and financial strength of the Europe.

Key Words: Miguel de Cervantes, Don Quichotte, Lepanto, Piracy, Captivity, Renegades, Ransom, The Order of the Most Holy Trinity.

شكلت بداية القرن السادس عشر منعطفًا تاريخيًا بالنسبة للبلدان المطلة على البحر الأبيض المتوسط، ففيما يتعلق بالضفة الشمالية لهذا البحر، فقد عاشت فيه إسبانيا أزهى فترات تاريخها بعد نجاح الملكين إيزابيلا القشتالية Isabella de Castilla وفردناندو الأركوني Fernando de Aragon من توحيد إسبانيا وطرد المسلمين من غرناطة، وهو الأمر الذي تزامن مع انطلاق المغامرة البحرية التي أفضت إلى اكتشاف العالم الجديد وتدفق المعادن النفيسة على هذا البلد مما مكن الملوك الإسبان من بسط نفوذهم على بعض المراكز في شمال إفريقيا وتكوين إمبراطورية على عهد كل من الملكين شارلكان Charles- Quint وفيليب الثاني Fillipe II ، وقد تزامن هذا الامتداد السياسي والاقتصادي الذي عرفته إسبانيا مع بروز قوة إسلامية انطلقت من شبه جزيرة الأنضول لتكون هي أيضا إمبراطورية مترامية الأطراف امتدت على كل من شبه جزيرة الأنضول وشبه جزيرة البلقان والمشرق العربي واستطاعت أن تبسط نفوذها على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط إلى حدود الجزائر، ويتعلق الأمر بالقوة العثمانية. مما أدى إلى التقاء حدود الإمبراطوريتين العثمانية والإسبانية على ضفتي هذا البحر وتصادم مصالحهما، الأمر الذي أفضى إلى صراع طويل استمر طيلة القرن السادس عشر¹.

خلال نفس القرن، وعلى الأرض الإسبانية، وبالضبط بقلعة هيناريس Henares في قشتالة، ولدت يوم 9 أكتوبر 1547 شخصية ساهمت في

إرساء النهضة الفكرية والأدبية في إسبانيا خصوصا وفي أوروبا عموما، وهي شخصية الأديب ميكيل دي ثربانتس سابيدرا Miguel de Cervantes Saavedra، مؤسس المسرح الإسباني ومبدع رواية "الدون كيخوتي دي لامانشا² El Ingenio "Hidalgo Don Quijote de la Mancha".

لم يعيش الأديب ميكيل دي ثربانتس بمنأى عن الرهانات السياسية والاقتصادية والعسكرية المشبعة بالتعصب الديني التي كانت تعرفها المنطقة، والتي أفضى إليها الصراع القائم بين الكيانات الكبرى المطلة على البحر الأبيض المتوسط³، بل انخرط في هذا الصراع نظرا لكونه عمل جنديا ضمن الحلف المسيحي وشارك في مجموعة من المعارك دارت بين الإسبان والعثمانيين، كما أنه قضى خمس سنوات في الجزائر بعد أن أسره قراصنة هذه المدينة. وقد ظهرت أصداء تجاربه هاته في مجموعة من مؤلفاته مثل مسرحية "سجون الجزائر" "Los banos de Argel" ومسرحية "الحياة في الجزائر" "Los trados de Argel" بالإضافة إلى أنه خصص ثلاثة فصول من روايته العالمية "دون كيخوتي دي لامانشا" لمذكرات أسير إسباني لدى العثمانيين في الجزائر.

سيحاول هذا المقال إبراز بعض مظاهر الصراع الإسلامي المسيحي خلال القرن السادس عشر، من خلال إلقاء الضوء على الشهادات التي قدمها هذا الأديب من خلال التجارب التي خاضها سواء فيما يتعلق بمشاركته كجندي في مجموعة من المعارك التي دارت بين الطرفين الإسباني والعثماني في البحر الأبيض المتوسط أو كأسير في الجزائر.

ثربانتس الجندي

ظهر الأديب ثربانتس على مسرح الأحداث بالبحر الأبيض المتوسط سنة 1569 عندما قرر اختيار حياة الجندي والالتحاق بالجيش الإسباني الذي كان

يسيطر على جزء من إيطاليا، ويعمل انطلاقاً منها على إيقاف الضربات العثمانية المتكررة التي كانت تستهدف روما والمسيحية جمعاء⁴، فقد شارك هذا الأديب في معركة ليبانتو سنة 1571، وفي الحملة الإسبانية على قلعة نافارين سنة 1572، كما شارك في الحملة البحرية الإسبانية على تونس سنة 1573، والتي استطاع الإسبان خلالها السيطرة على حصن "حلق الوادي"⁵.

وقد قدم ثريانتس شهادته حول معركة ليبانتو في مؤلفه الدون كيوخوتي على الشكل التالي:

" علمنا بالمخالفة التي عقدها قداسة البابا بولس الخامس، الطيب الذكر، مع إسبانيا وجمهورية البندقية ضد العدو المشترك وهو الترك. وعرف أيضاً أن دون خوان النمساوي الأخ الطبيعي لملكنا الطيب فيليب سيكون القائد العام لهذه العصابة... فألهبت هذه الأنباء حماسي وشجاعي، وأعطتني الرغبة في الاشتراك في هذه الحملة... ومن حسن الحظ كان دون خوان النمساوي قد وصل إلى جنوة منذ وقت قليل، ومن هنا أبحر إلى نابولي، حيث ينبغي عليه أن يلحق بأسطول البنادقة، وهو ما فعله في ميسينا. وأخيراً شهدت ذلك اليوم السعيد الشهير، يوم معركة ليبانتو، وفي هذا اليوم السعيد بالنسبة إلى النصرى، لأنه بدد الخطأ الذي خيل إليهم أن الأتراك لا يقهرون في البحار، ولكن الكبرياء العثماني ترنح في ذلك اليوم"⁶.

كان ثريانتس حاضراً إذاً خلال مرحلة مفصلية من مراحل الصراع العثماني الإسباني، وسجل بذلك آخر مراحل المواجهات المسيحية الإسلامية التي بدأت مع حملات الاسترداد التي قادتها الممالك الإسبانية ضد الوجود الإسلامي بالأندلس، وتوج بسقوط غرناطة سنة 1492- الحدث الذي أنهى الوجود الإسلامي بشبه الجزيرة الإيبيرية- وسمح لإسبانيا بالتطلع إلى غزو شمال

إفريقيا واحتلال السواحل المتوسطية الجنوبية،⁷ مستفيدة من تدهور السلطات الحاكمة ببلدان شمال إفريقيا (الوطاسيون بالمغرب والزيانيون بنو عبد الواد بالجزائر والحفصيون بتونس)⁸، إلى أن استطاع الحد من طموحها استقرار القرصانان عروج وخير الدين بربروس بمرسى جيجل، وأخذاً على عاتقهما مهمة طرد الإسبان من السواحل المتوسطية الجنوبية.⁹

لم تكن الإمكانيات المادية والعسكرية المحدودة للأخوين بربروس تسمح لهما بمواجهة عدو قوي من حجم إسبانيا، فتوجها لطلب الدعم من العثمانيين الذين كانوا قد مدوا نفوذهم خلال تلك الفترة إلى مصر سنة 1517 وبدأ زعمائها يوجهون أنظارهم نحو الغرب. وهكذا عرض خير الدين بربروس على السلطان العثماني سليم الأول (1512-1520) أن يغزو شمال إفريقيا باسمه ويمنع بذلك الإسبان من الوصول إلى المنطقة الشرقية، وهو ما وافق عليه السلطان العثماني.¹⁰ وأصبحت بذلك الجزائر منذ سنة 1518 ولاية عثمانية تمثل الجبهة الخلفية للإمبراطورية، وعهد السلطان العثماني لولايتها بمواجهة الإسبان والمسيحيين بغرب المتوسط.

بسيطرة العثمانيين على شمال إفريقيا بدأ التراجع الإسباني بهذه المنطقة، فقد أخذت المراكز التي سيطر عليها الإسبان تسقط واحدة تلو الأخرى في أيدي العثمانيين بزعامة خير الدين بربروس، مما جعل نداءات البابا تتعالى من أجل عقد تحالف مسيحي للقضاء على العدو المشترك.¹¹ وفعلا تم حشد القوى الإسبانية والبنديقية والنمساوية والبابوية بالإضافة إلى فرسان مالطا في معركة بروزة على السواحل اليونانية سنة 1538 ضد العدو العثماني المشترك، ولكن المعركة انتهت بانتصار العثمانيين وتكريس سيطرتهم على البحر الأبيض المتوسط، وقد فتح هذا الانتصار عهد التفوق البحري العثماني بالبحر الأبيض المتوسط.¹² كما تلا معركة بروزة فشل الحملة التي جهزها الملك الإسباني

شارلكان على الجزائر سنة 1541 والتي تمت بتشجيع من البابوية وشارك فيها أيضا متطوعون من كافة بلدان أوروبا، وإن كان فشل هذه الحملة يعود بالدرجة الأولى للعوامل الجوية، فقد حطمت عاصفة بحرية جل قطع الأسطول الإسباني على السواحل الجزائرية قبل بدأ المعركة¹³. ونتج عن هزيمة معركة بروزة وفشل حملة شارلكان على الجزائر تعزيز موقف خير الدين وحزبه المؤيد للاستراتيجية الهجومية في البحر الأبيض المتوسط،¹⁴ حيث أصبحت قوة أوجاق الجزائر تشكل خطرا على أوروبا عموما وإسبانيا خصوصا، هذه الأخيرة التي اكتفت بالحفاظ على بعض الحصون في كل من وهران والمرسى الكبير وتلمسان متبنية بذلك خطة دفاعية عوض الخطة الهجومية التي كانت تتبعها قبل الوجود العثماني بالمنطقة¹⁵.

كما أورد ثريانتس، فقد لقيت نداءات البابا صدى لدى القوى الأوروبية، بحيث انتهت إلى النجاح في إبرام الحلف المسيحي المقدس بين الإسبان والبنادقة يوم 20 ماي 1571، والذي شكل الاتفاق على المواجهة المشتركة للأسطول العثماني في معركة ليبانتو في 7 أكتوبر 1571 أهم بنوده، وهي المعركة التي شارك فيها الأديب ثريانتس بحماس، التي أصيب خلالها بجروح بليغة أدت إلى فقدانه القدرة على تحريك ذراعه اليسرى بقية حياته¹⁶. وقد أسفرت هذه المعركة عن انتصار الحلف المسيحي، واعتبرت أول وأعظم هزيمة تعرض لها الأسطول العثماني من طرف القوى الأوروبية منذ أن أصبحت منطقة شمال إفريقيا ولاية عثمانية، حيث أسرت أو غرقت خلالها أكثر من مائتي سفينة وقتل أو جرح ثلاثون ألف مقاتل وأسر ثلاثة آلاف¹⁷، وقد شكل الانتصار المسيحي انتصارا نفسيا بالدرجة الأولى، إذ تمكن المسيحيون في هذه المعركة، كما أشار إلى ذلك ثريانتس، من تحطيم أسطورة الأسطول العثماني الذي لا يقهر¹⁸.

حاول الحلف المسيحي الاستفادة من انتصار ليبانتو لتكثيف الهجمات على الممتلكات العثمانية، فقام بتنظيم حملة على حصن نافارين سنة 1572، شارك فيها الأديب ثريانتس أيضا، لكن هشاشة هذا الحلف الذي كان من المفترض أن يستمر مدة اثني عشرة سنة ظهرت عقب وفاة البابا بيوس الخامس وتراجع جمهورية البندقية عن دعم الإسبان، لتجد إسبانيا نفسها وحيدة في مواجهة الأتراك العثمانيين.¹⁹ مما انعكس على نتائج هذه الحملة والتي كانت جد متواضعة. رغم محدودية حجم نتائج حملة نافارين، فإن الملك الإسباني فيليب الثاني لم يتخل عن آماله في السيطرة على منطقة شمال إفريقيا وقرر القيام بالهجوم على تونس سنة 1573، فنظم حملة على حلق الوادي أسند قيادتها إلى أخيه دون خوان النمساوي Don Juan d'Autriche، لكنه تراجع بعد ذلك ووجه أوامره لقائد الحملة بمغادرة "حلق الوادي"، مكتفيا بترك كتيبة عسكرية قليلة العدد لحراسة هذا الحصن.²⁰

كانت نتيجة هذه الحملة الأخيرة جد باهتة، فبعد عام، أي سنة 1574، قام القبودان باشا علوج علي والقائد سنان باشا بحملة قوية على تونس تمكنا خلالها من طرد الحامية العسكرية الإسبانية بحلق الوادي، وبذلك ضمت المدينة بشكل نهائي إلى الدولة العثمانية، وتم القضاء النهائي على المملكة الحفصية والوجود الإسباني بتونس.²¹ يقدم ثريانتس في مؤلفه "الدون كيخوتي" السيطرة العثمانية على تونس على الشكل التالي:

"في السنة التالية، 1573، علمنا أن دون خوان استولى على تونس من الأتراك، فتأثر السلطان الأعظم لهذه الخسارة، ولهذا استخدم الحيلة المألوفة في قومه، وأصلح مع البنادقة وهم كانوا إلى الصلح أشد توقا. وفي السنة التالية سنة 1574، هاجم سليم حلق الوادي والحصن الذي تركه دون خوان بالقرب من تونس ولم يتم بناؤه... وأخيرا تم الاستيلاء على حلق الوادي والحصن، وقد

وضع أمام هذين الموقعين خمسة وسبعون ألفا من الجنود النظاميين، وأكثر من أربعمئة ألف عربي ومغربي من كل إفريقية، مع ذخيرة وعدة هائلتين".²²

شكلت سيطرة العثمانيين على تونس ردا على هزيمة ليانتو، كما كانت آخر مواجهة عسكرية بين القوتين العثمانية والإسبانية، فقد طويت بعدها صفحة المواجهات الحربية المباشرة بين العملاقين في البحر الأبيض المتوسط، ليأخذ الصراع الإسلامي المسيحي أشكالا أخرى.

ثربانتس أسير في الجزائر

خرج الإسبان والعثمانيون منهكين من مواجهات عسكرية استمرت طيلة القرن السادس عشر²³، كما خرج الأديب ثربانتس أيضا منهكا بعد أن قضى سبع سنوات من العمل في الجندية، شارك خلالها في ثلاث حملات عسكرية كبرى ضد العثمانيين. وبعد أن قرر سنة 1575 العودة إلى بلده، طلب من قائده دون خوان النمساوي السماح له بالتوجه إلى إسبانيا، وقد استجاب له هذا الأخير وزوده برسالة تزكية موجهة إلى أخيه الملك فيليب الثاني، كما تمكن ثربانتس أيضا من الحصول على رسالة تزكية أخرى موقعة من طرف دون كارلوس الأركوني Don Carlos d'Aragon دوق سيزا Siza، وموجهة إلى ملك إسبانيا ووزرائه. بعد ذلك أبحر على متن السفينة El Sol من نابولي في اتجاه إسبانيا.²⁴

أثناء إبحار ثربانتس إلى إسبانيا وقعت السفينة التي كان على ظهرها بين أيدي القراصنة الجزائريين واقتيد أسيرا إلى مدينة الجزائر حيث قضى خمس سنوات من حياته في الأسر.²⁵

ارتبطت حادثة الأسر التي تعرض لها ثريانتس بالتحول الذي طرأ على مظهر الصراع العثماني الإسباني بشكل خاص والإسلامي المسيحي بشكل عام أواخر القرن السادس عشر بعد توقف المواجهات العسكرية الكبرى بين الطرفين وتعويضها بعمليات قرصنية استهدفت السواحل والجزر المتوسطية الأوروبية والسفن التجارية الإسبانية المحملة بالثروات القادمة من العالم الجديد.

إن هذا التحول في الاستراتيجية الحربية لم يكن يعني أن نشاط القرصنة كان وليد تلك المرحلة التاريخية، فقد كانت القرصنة نشاطا سائدا في البحر الأبيض المتوسط منذ القدم، تتعادل فيه الضفة الشمالية مع الضفة الجنوبية، لكنه تزايد بالنسبة لبلدان المغرب مع وصول الأخوين بربروس وخلفائهما إلى المنطقة، حيث أصبحت قرصنة الجزائر تمثل نصف القرصنة الإسلامية أي ربع مجموع القرصنة في البحر الأبيض المتوسط،²⁶ هذا النشاط الذي كان إلى حدود معركة ليبانتو يمارس من طرف الأساطيل العثمانية ويدخل ضمن استراتيجية حربية عثمانية، ويأخذ عنه الأسطول الجزائري نصيبه حسب نسبة مساهمته فيه²⁷، اتخذ أواخر القرن السادس عشر شكل حرب استنزافية تهدف إلى تكبيد العدو خسائر اقتصادية وبشرية أكثر من تدمير قوته، وذلك عن طريق الاستيلاء على سفن العدو وتفريغ حمولتها وأسر ركابها وتحويلهم إلى غنيمة سائغة قادرة لأن تدرأرباحا في عالم التجارة أو تستغل في الخدمات.

شكلت ظاهرة أسر المسيحيين إحدى أهم الظواهر المنبثقة عن ازدهار نشاط القرصنة الجزائرية، وكانت بمثابة صدى يعكس استمرار الصراع المسيحي العثماني عن طريق استنزاف الرأسمال البشري الأوروبي والمتمثل في سياسة إدماج الأسرى المسيحيين في المجتمع العثماني أو عن طريق جني مداخيل مالية نتيجة عملية افتداء الأسرى²⁸.

1- استنزاف الرأس مال البشري الأوروبي وسياسة دمج الأسرى الأوروبيين: تسببت ظاهرة أسر المسيحيين في نزيف ديموغرافي في أوروبا، إذ أدت إلى إفراغ السواحل الأوروبية من ساكنتها سواء عن طريق الحملات التي كان يقوم بها القراصنة على السواحل المتوسطية أو عن طريق أسر البحارة والمسافرين أو الجنود المستقرين بالثغور المغاربية المحتلة، مما أدى إلى حرمان أوروبا من ساكنتها النشيطة وطاقاتها الشابة، ومثل بالمقابل²⁹ قيمة مضافة للإمكانات الإدارية والعسكرية والبحرية العثمانية، في ظل نظام عثماني يرحب بهؤلاء الوافدين الجدد، ويسعى إلى صهر العناصر الأوروبية الشابة التي تمتلك مهارات مهنية خاصة، وذلك عن طريق إغرائها بالمستقبل الذي ينتظرها إذا هي ارتدت عن دينها واعتنقت الدين الإسلامي ودخلت في خدمة السلطان العثماني³⁰.

أشار ثريانتس في روايته "الدون كيخوتي" إلى هذه السياسة التي كان يتبعها النظام العثماني، والمتمثلة في استقطاب الأسرى الأوروبيين، خاصة المنحدرين منهم من أصول اجتماعية متواضعة، وذلك من خلال تطرقه إلى بعض النماذج من الأسرى الذين أغرتهم الامتيازات التي تمنحها الدولة العثمانية، وانخرطوا في خدمتها بعد اعتناقهم للدين الإسلامي.

-النموذج الأول: ويتعلق الأمر بشخصية "علوج علي" فيقول عنه: "كان يسمى عادة باسم علي فرتكس، ومعنى هذا باللغة التركية المرتد الأجر، وكان كذلك فعلا... وكان العليج علي على طوال أربعة عشرة سنة عبدا للسلطان الأعظم، ولما بلغ الرابعة والثلاثين من العمر تحول عن دينه، لما أن خدعه تركي، واعتنق الإسلام لينتقم لنفسه، وتميز بشجاعته الفائقة حتى صار ملكا على الجزائر دون أن يمر بالمراتب الوسطى التي اعتاد أن يشغلها محاسيب السلطان، ثم صار أمير البحر، وهو ثالث منصب في الدولة."³¹

يعتبر علوج علي نموذجاً للأسرى الأوروبيين الذين نجح العثمانيون في اقتلاعهم من جذورهم وصهرهم في المجتمع العثماني، والاستفادة من مهاراتهم الحربية والبحرية بفضل عملية الارتقاء الاجتماعي التي كانت تسمح بها الدولة العثمانية للمسلمين الجدد. فقد كان علوج علي مجرد ابن صياد فقير ينتمي إلى جزيرة كالابريا الإيطالية، أسر من طرف خير الدين بربروس سنة 1536، وعمل مجدداً لسنوات طويلة على القوادس الجزائرية، ثم اعتنق الدين الإسلامي بعد أن استهوته حياة المغامرة والرفاهية التي كان يعيشها قراصنة الجزائر. فبدأ حياته العملية بعد اعتناقه للدين الإسلامي كقرصان، وتدرج بسرعة في سلم المسؤوليات إلى أن أصبح من أشهر رياس البحر، حيث ساهم في عدة حملات ومعارك خاضها الأسطول العثماني بالبحر الأبيض المتوسط، وبعد تعيينه على رأس إيالة طرابلس سنة 1556 استطاع إخماد الثورة الواسعة التي قادها شيوخ القبائل في هذه الولاية والتي دامت عدة سنوات، ووضع حداً نهائياً لها في 1557، ثم شارك في الحملة على جربة سنة 1560 وفي حصار مالطا سنة 1565 وفي معركة ليبانتو سنة 1571، والتي تمكن خلالها من المحافظة على قطع الأسطول الجزائري رغم الهزيمة التي مني بها العثمانيون، كما قاد الحملة العثمانية على تونس سنة 1574. عين باشا على طرابلس بعد وفاة درغوت كما عين "بكلربك" الجزائري ما بين 1568 و 1571، وبعد هزيمة ليبانتو تم تعيينه في أعلى منصب في البحرية العثمانية وهو منصب "قابودان باشا" الأسطول العثماني، كمكافأة له على تمكنه من الحفاظ على سلامة قطع الأسطول الجزائري خلال هذه المعركة، وترأس عملية إعادة بناء الأسطول العثماني بعد تلك المعركة والتي تمت بسرعة كبيرة. وظل يشغل منصب قبودان باشا إلى أن توفي سنة 1580 بإسطنبول.³²

- النموذج الثاني: ويتعلق الأمر بشخصية حسن فنزيانو الذي يعتبر نموذجاً آخر من الأسرى المسيحيين الذين استطاع العثمانيون إدماجهم في الحياة

السياسية والعسكرية في الجزائر، والذي يتحدث عنه ثريانتس قائلاً: "أما أنا فكنت من نصيب أحد البنادقة، وكان من قبل ملاحا، ومن أقرب المقربين إلى العليج علي الذي أسره في البحر، وكان أقسى إنكشاري وجد، وكان اسمه حسن أغا، وصار غنيا جدا وعين ملكا على الجزائر."³³

عرف حسن فتزيانو مسارا مشابها لمسار حياة علوج علي، فقد أسره درغوث رايس- باشا طرابلس- وهو طفل، وعندما قتل هذا الأخير أصبح من نصيب خليفته علوج علي. وبما أنه كان يتميز بالشجاعة والمهارة وحب المغامرة والمكر فقد نال إعجاب مالكة الذي عهد له بوظائف مهمة في الجزائر بعد أن أصبح حاكما لها³⁴، وشارك إلى جانبه في الحملة على حلق الوادي سنة 1574، ثم عين باشا على الجزائر سنة 1577.³⁵

يحيل مسار حياة العليج حسن فتزيانو على فئة معينة من الأسرى، وهم الأطفال، وهي فئة عمرية نالت اهتماما كبيرا من طرف العثمانيين الذين كانوا يستعينون بها في تطعيم الجيش والبحرية العثمانيين، في فترة زمنية كان يتم الانخراط فيها في سلك الجندية أو البحرية منذ الطفولة، وكان الحصول على طفل أو مراهق بدأ عوده يشتد يشكل ربحا على حساب الأعداء، خاصة وأن نسبة وفيات الأطفال كانت مرتفعة خلال العصر الحديث، فقد قدرت ما بين عشرين بالمائة وخمسة وعشرين بالمائة، هذا بالإضافة إلى كون الأطفال مثلوا عنصرا هش المقاومة يسهل صهره في المجتمع الإسلامي، لذلك فقد كان النظام العثماني يعمل على الحفاظ على معظم الأطفال الذين وقعوا في الأسر، ويرفض أية مفاوضات حول اقتنائهم مهما كان مبلغ الفدية مغريا³⁶.

وعموما تبرز نماذج الأسرى الذين تحولوا عن الدين المسيحي وأصبحوا "علوجا"، والذين تطرق لهم ثريانتس في روايته، مدى نجاح المشروع السياسي

العثماني المبني على الاعتماد على عناصر اجتماعية دخيلة ذات كفاءة مهنية عالية، وفصلها عن أصولها عن طريق تشجيعها على اعتناق الدين الإسلامي، وصهرها في المجتمع العثماني بهدف الاستفادة من مهاراتها. فباعتماد الإحصاءات التي قدمها الراهب الإسباني الأسير فراي ديبكودو هايدو Fray Diego De Haedo ، والذي وصل إلى الجزائر سنة 1580، وهي نفس السنة التي غادر فيها ثربانتس هذه المدينة، فقد قدر عدد المسلمين من أصول مسيحية بمدينة الجزائر، والذين كونوا فئة اجتماعية عرفت ب"العلوج" بأكثر من ستة آلاف أسرة³⁷.

2- الاستنزاف الاقتصادي

تمثل الشق الثاني من الانعكاسات المترتبة عن ظاهرة أسر المسيحيين، في ضرب القوة الاقتصادية للأوروبيين عن طريق ما تطلبه تحرير الأسرى الأوروبيين من اعتمادات مالية كان على الأسير أو الحكومات الأوروبية أو الهيئات الدينية المتخصصة في افتداء الأسرى أداءها. وتعكس ظاهرة قبول تحرير الأسرى المسيحيين مقابل المال ابتعاد نشاط القرصنة عن الروح الجهادية التي كانت تحركه، حين كان الجانب الديني حاضرا في كل الأمور المتعلقة بالأسرى في بداية الحضور العثماني بالمنطقة، وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى ما أورده صاحب "الزهرة النائرة" إذ يذكر كيف أن خير الدين بربروس جمع فقهاء مدينة الجزائر، واستفتاهم في مسألة افتداء جماعة من أعيان إسبانيا، وكان عددهم ستة وثلاثين، مقابل مبلغ قدره مائة وعشرين ألف دينار ذهبي، فاتفقت فتواهم على عدم جواز فداء الأسرى بالمال، لأن هؤلاء من أعيان النصارى وزعمائهم ويتقوى بهم عدو المسلمين³⁸. في حين أصبح الأسير أواخر القرن السادس عشر يمثل سلعة مربحة تعمل على تصريف نفسها بنفسها، في ظل مؤسسة كسبية ميركنتيلية هدفها الأساسي هو تحقيق الربح والغنيمة مع السهر على تكبد أقل قدر من الخسائر، حيث تحول رياس العهد الجديد إلى قرصنة هم في نفس

الوقت نوع من التجار ونوع من لصوص البحر يعتبرون مهنتهم مؤسسة حرفية يجب ممارستها بكل الحذر الممكن مع تفادي المعارك بكل الوسائل الممكنة³⁹.

ومن المؤشرات الدالة على التحول الذي عرفه الهدف من أسر المسيحيين من خلال تجربة ثريانتس:

- البحث عن الربح وتفادي المعارك الخاسرة: بعد أن قرر ثريانتس التوقف عن حياة الجندية والتوجه إلى بلده، أبحر على متن سفينة تمثل جزء من أسطول مكون من أربعة سفن، وقد أدى هبوب عاصفة إلى تحويل مسار هذه السفينة وعزلها عن بقية السفن، حيث فاعترضتها ثلاث سفن قرصنية جزائرية ونجحت في الاستيلاء عليها. يحيل هذا الحادث إلى التوجه الجديد الذي عرفه نشاط القرصنة، هذا التوجه الذي تطرقت له مجموعة من أدبيات الأمر والافتداء، والتي كانت تشير إلى أن القرصنة المغاربيين لم يكونوا يقدمون على مهاجمة أية سفينة أوروبية إلا إذا كانوا متأكدين أن نتيجة المعركة ستكون لصالحهم⁴⁰، وأكد ثريانتس عندما تحدث عن خروج ثلاث سفن قرصنية لتختار ضحيتها بعناية وتهاجم سفينة واحدة، وهذا ما جعل المعركة غير متكافئة وحسم نتيجتها لصالح القرصنة الجزائريين منذ البداية، والذين أصبحوا بهذه الطريقة بمنأى عن أية خسارة.

-عملية تقسيم الغنيمة، والتهافت على امتلاك الأسرى الذين يحتمل أن يكونوا أغنياء، وينتظر أن يتم اقتداؤهم مقابل مبالغ مالية مرتفعة، ويلاحظ هذا التوجه من خلال إصرار "دالي مامي"، وهو القرصان الذي أسر ثريانتس، أن يكون هذا الأسير من نصيبه، رغم ملاحظته للإعاقة التي يعاني منها والتي تسببت فيها مشاركته في معركة ليبانتو، ويرجع سبب هذا الإصرار إلى اطلاعه على رسائل التزكية التي كان يحملها ثريانتس، والموجهة من شخصيات سياسية مهمة في

إيطاليا والنمسا إلى شخصيات مهمة في إسبانيا، مما جعله يخمن أهمية أسيره، ويتوقع أن يحقق ربحاً مهماً من وراء عملية افتدائه المنتظرة⁴¹. لكن هذا القرصان تعرض لمنافسة حسن فنزيانو، باشا الجزائر، الذي طلب من مالكة أن يبيعه إياه بمجرد أن علم هو أيضاً برسائل التزكية التي يحملها هذا الأسير، مستغلاً بذلك حق الشفاعة الذي كان يعطي لحاكم الجزائر الحق في امتلاك الأسرى مقابل أدائه الثمن الذي بلغوه في السوق. لا يمكن تفسير هذا التهافت على امتلاك أسير يعاني من إعاقة جسدية، إلا بإدراك أهمية الربح الذي يمكن أن يجني من وراء عملية افتداء أسير من فئة الفرسان. وهذا ما تم حيث قام حسن فنزيانو بشراء الأسير ثريانتس بمبلغ خمسمائة أوقية ذهبية، وطلب منه أداء ضعف ذلك المبلغ إذا هو أراد الحصول على حريته⁴².

- أسلوب معاملة الأسرى: اتفقت أدبيات الأسرى والرهبان الفدائين على رسم صورة سوداوية قاتمة لواقع الحياة اليومية للأسرى في مدينة الجزائر، فقد أجمعت على أن الصبغة الأساسية التي ميزت أسلوب التعامل هي القسوة وإسناد الأعمال الشاقة وقلة الطعام وضعف جودته وانتشار الأمراض والأوبئة بين صفوفهم⁴³. وهو ما أكده ثريانتس قائلاً: "وعلى الرغم من أن الجوع والحرمان عذبانا كثيراً مراراً، ففي وسعي أن أقول دائماً أنه لم يحزننا شيء قدر أن نكون شهوداً على قساوات لم يسمع بمثلهما كان سيدي يسومها للنصارى، فلم يمض يوم دون أن يشنق أو يخوزق بعضهم، أو على الأقل يقطع أذانهم وهذا كله لأسباب تافهة جداً"⁴⁴، ولكن الأديب يستطرد قوله، في إشارة منه إلى أن انتظار عملية افتداء الأسير تغير من أسلوب المعاملة لأن المالك في هذه الحالة يعتبر أسيره استثماراً مالياً ومعاملة تجارية يحرص فيها على تحقيق أكبر قدر من الربح، مما يتدخل بشكل كبير في تحديد أسلوب المعاملة. بل ويخضع الأسرى لعملية تصنيف تتم معاملتهم على أساس انتمائهم لأي فئة من الأسرى. يقول ثريانتس:

"وقد وضعوني بين أسرى الفدية لما عرفوا أنني برتبة نقيب وإن كنت قد بينت لهم أن لا مال عندي للفدية. والسلسلة التي قيدوني بها كانت علامة فدية مقبلة أولى من أن تكون علامة عبودية. وهكذا قضيت حياتي في هذا السجن، بين الفرسان وعلية الناس المنتظر فداؤهم بالمال".⁴⁵ وقد كان الأسرى المنتمون إلى فئة "أسرى الفدية" يعفون من العمل، حيث يقول ثريانتس: "وذات يوم كنت على السطح أتدرب على القفز مع ثلاثة من رفاقي، وكان الباقون جميعا في الشغل"⁴⁶.

لكن أسلوب التعامل قد يتغير إذا تأخر وصول الفدية، يقول ثريانتس: "في هذه السجون يضع بعض أفراد الناس، كما قلت عبيدهم، خصوصا أولئك الذين تمكنهم أحوالهم من افتداء أنفسهم لأنهم يكونون هناك في أمان حتى تصل فدياتهم. وعبيد الملك الذين ينتظرون الفداء من الأسر لا يعملون مع باقي العبيد، اللهم إذا تأخر وصول الفدية، إذ لحثهم على الكتابة باهتمام أكبر إلى أوطانهم يرسلون إلى الغاب مع الباقين وهو تعب ليس بالقليل".⁴⁷

-التسامح مع أسرى الفدية والتغاضي عن أخطائهم: لا يمكن إغفال درجة التسامح المبالغ فيها تجاه أسرى الفدية، حيث يلاحظ تغاضي الملاكين عن الأخطاء التي قد يرتكبها أسير من هذا الصنف، ويرجع سبب هذا التسامح إلى مخافة أن يؤدي العقاب إلى التأثير على القوة البدنية للأسير مما يبخر قيمته. ويمكن ملاحظة ذلك من خلال طريقة التعامل التي حظي بها ثريانتس رغم أنه قام بتدبير أربع محاولات فاشلة للفرار الجماعي للأسرى، وكان دائما يعترف أنه الرأس المدبرة لهذه العمليات، ومع ذلك لم يتعرض للعقوبة بعد فشل محاولاته، فكل ما في الأمر أنه كان يتم تشديد الحراسة عليه. حيث يقول في هذا الصدد: "لكن جنديا إسبانيا واحدا اسمه سابيدرا، استطاع أن يغيظ هذا الرجل القاسي. فقام من أجل استرداد حرته، بأعمال ظل الأتراك يذكرونها

زمنًا طويلًا، فلم يضره حسن أغا أية ضربة ولم يأمر بضره أحدًا، ولم يقل له أبدا كلمة خشنة، وكنا نخشى في كل لحظة أن يخوزق هذا الجندي، وهو نفسه خشي ذلك أكثر من مرة.⁴⁸

- الترحيب بالتنظيمات الدينية المسيحية المتخصصة في افتداء الأسرى: لم تنجح محاولات الفرار المتكررة التي قام بها ثريانتس، ولم تؤت رسائل الاستعطاف التي كانت ترسلها أسرته إلى البلاط الملكي الإسباني ليتدخل لفك أسره أية نتيجة، لكنه استطاع الحصول على حريته بفضل مبادرة من رجال الدين الفدائيين المنتميين إلى تنظيم "الثالوث المقدس وافتداء الأسرى" L'Ordre de la sainte Trinité et de la rédemption des captifs والذين نظموا رحلة لافتداء الأسرى الإسبان في الجزائر سنة 1580، وقاموا بدفع نصف المبلغ المالي المطلوب لتحرير ثريانتس بعد أن تمكنت أسرته من تدبير النصف الآخر. ويعتبر تنظيم الثالوث المقدس إلى جانب تنظيمات دينية أخرى كتنظيم أمنا الرحيمة L'ordre de Notre Dame de la Merci وتنظيم اللازاريين L'ordre des Lazaristes من أهم التنظيمات الدينية المسيحية التي أخذت على عاتقها مهمة مساعدة الأسرى المسيحيين في البلدان الإسلامية والعمل على تحريرهم، خاصة الأسرى المنتميين إلى إسبانيا، العدو التقليدي للدولة العثمانية، والتي لم تسمح حالة التوتر المستمر معها في حضور أي تمثيل دبلوماسي إسباني يسهر على خدمة مصالح رعايا الملك الإسباني داخل الأراضي العثمانية، لذلك حاولت هذه التنظيمات الدينية ملء الفراغ الدبلوماسي الذي خلفته الأزمات والحروب الطويلة بالحضور إلى الجزائر بهدف تقديم الدعم الروحي للأسرى وافتدائهم، حيث كانت تقوم بحملات في مختلف الأوساط الأوروبية سواء الغنية أو الفقيرة لجمع التبرعات لافتداء الأسرى⁵⁰، وبعد أن تتمكن من جمع مبالغ كافية لافتداء عدد مهم من الأسرى المسيحيين تنظم رحلة إلى أحد البلدان بالضفة الجنوبية

للبحر المتوسط لافتداء بعض المسيحيين المأسورين فيه. وقد كانت هذه البعثات تلقى ترحيبا كبيرا من طرف السلطات المغاربية نظرا للأموال والهدايا التي كانت تحضرها معها من أجل إنجاز عملية الافتداء والتي كانت تمثل نسبة مهمة من مداخيل ولاية الجزائر حيث ساهمت في تدفق الريالات الإسبانية التي كانت تعتبر قطعة أساسية للتداول النقدي العالمي في تلك الفترة، إلى درجة أن الريال الإسباني أصبح العملة الرئيسية للجزائر لمدة عشرات السنين،⁵¹ وقد ربط بروديل ازدهار الاقتصاد للجزائر وثورائها خلال الفترة الممتدة ما بين سنوات 1580-1620 بالسنوات التي بلغت فيها القرصنة الجزائرية أوجها⁵².

تجدد الإشارة إلى أن حصول ثريانتس على حريته لم يكن يعني نهاية علاقته مع الجزائر والدولة العثمانية، فقد ظلت تحركات الأسطول العثماني في البحر الأبيض المتوسط الغربي محط اهتمام الملك الإسباني فيليب الثاني، مما جعله يقوم بإرسال بعثة إسبانية إلى الجزائر ترأسها ثريانتس باعتباره خبيرا في شؤون شمال إفريقيا، في إطار مهمة سرية لدى حاكم حصني وهران والمرسى الكبير، دون مارتان القرطبي Don Martin de Cordova سنة 1581، وكان من مهام البعثة التنقل بين مستغانم ووهران للتفاوض مع السلطات المحلية من أجل عقد اتفاق مع السلطات الإسبانية، وقد استغرقت هذه المهمة أربعة أشهر ما بين ماي ويوليوز 1581.⁵³ وإن ظلت أهدافها غير واضحة نظرا لغياب أي تقرير رسمي يبين طبيعتها وأهدافها ونتائجها.

خلاصة:

قدم ثريانتس شهادات حية عن الصراع الإسلامي المسيحي عموما والصراع العثماني الإسباني بالبحر الأبيض المتوسط خاصة بمختلف أشكاله سواء المباشرة والمتمثلة في المعارك والحروب، أو غير المباشرة والمتمثلة في نشاط

القرصنة وما يرتبط به من استنزاف قوة العدو البشرية والمالية. وتكمن أهمية شهادة هذا الأديب في كونها تعدت الوصف البسيط للأحداث والأشخاص، بل تميزت بعمق الرؤية، لكونه كان مدركا لحجم الرهانات السياسية والعسكرية بالعالم المتوسطي خلال القرن السادس عشر، مما مكنه من نقل تجربته في الجنديّة بكل دقة وتمحيص دون عزلها عن سياقها التاريخي، كما أنه لم يكن أسيرا عاديا، فقد كان أديبا ومثقفا، استطاع بأسلوبه ولغته نقل مشاهد الحياة اليومية في الجزائر وحياة الأسرى المسيحيين في هذا البلد ودون قصد من إطارها الجيوتاريخي الضيق إلى مستوى العالمية، وأضفى بأسلوبه الأدبي بعدا عالميا على "الأسطورة المغاربية".⁵⁴

¹ عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2009، الجزء 3، ص 430.

² Mika Ben Miled, *Cervantès, soldat à Tunis, captif à Alger avec la relation du siège de la Goulette par les espagnols*, Ed. Cartaginoiseries, 2006, p. 7.

³ Fernand Braudel, « Les espagnols en Afrique du Nord », in *Revue africaine*, n° 69, Alger 1928, pp. 192- 204.

⁴ M.Ben Miled, op. cit., p. 9.

⁵ Ibid., pp. 11, 12, 13.

⁶ ميكيل دي ثربانتس سايدرا، دون كيخوتي دي لامانشا، ترجمة عبد الرحمان بدوي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1998، الجزء 1، ص. 63.

⁷ F. Braudel, « Les espagnols... », op.cit., pp. 192-212.

⁸ شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية: تونس الجزائر المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830، تعريب محمد مزالي، البشير سلامة، الدار التونسية للنشر، 1983، ص ص. 323-321.

⁹ عبد الله العروي، م س، ص. 458.

¹⁰ نفسه، ص. 459.

¹¹ شارل أندري جوليان، م س، ص ص. 336-335.

¹² منور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، الجزء 2، القرصنة بين الأساطير والواقع، دار القصة للنشر، الجزائر، 2009، ص. 96.

¹³ Henri Delmas de Grammont, *Histoire d'Alger sous la domination turque*, Ed. Bouchène, 2002, p. 75.

¹⁴ Fernand Braudel, *La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philipe II*, A. Colin 1985, TII, p. 384.

¹⁵ F. Braudel, *Les espagnols*, op. cit., P. 229.

¹⁶ M. Ben Miled, op. cit., p. 12.

¹⁷ F. Braudel, *La Méditerranée...*, op. cit., p. 397.

¹⁸ F. Braudel, *La Méditerranée...*, op. cit., pp. 383-386.

¹⁹ M. Ben Miled, op. cit., p. 13.

²⁰ M. Ben Miled, op. cit., p. 16.

²¹ F. Braudel, *La Méditerranée...*, op. cit., p. 409 .

²² ميكيل دي ثريانتس، م س، ص. 65.

²³ منور مروش، م س، ج 2، ص. 193.

²⁴ M. Ben Miled, op. cit., p. 16.

²⁵ Ahmed Ayyad, « Captifs et captivité dans les œuvres de M. de Cervantès, Alger au XVIème Siècle », in *Sources documentaires étrangères, l'Algérie : Histoire et société-un autre regard- Etudes des archives et témoignages en Algérie à l'étranger*, Ed. CRASC, 2005, p. 19.

²⁶ F. Braudel, *La Méditerranée...*, op. cit., p. 209.

²⁷ منور مروش، م س، ج 2، ص. 92.

²⁸ أمين محمد، "القرصنة وشروط افتداء الأسرى الإسبان بالجزائر في القرن الثامن عشر"، ضمن، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، أنفو برانت، فاس، 2011، ص. 68.

²⁹ Bartolomé et Lucile Bennasser, *Les chrétiens d'Allah, Histoire extraordinaire des renégats de XVI et XVIIème siècles*, Ed. Perrin, 2001, p. 268.

³⁰ Ibid., p. 267.

³¹ ميكيل دي ثريانتس، م س، ص. 63.

³² B et L. Bennasser, op. cit., p. 370.

³³ ميكيل دي ثريانتس، م س، ص. 339.

³⁴ Diego de Haedo, *Histoire des rois d'Alger*, traduit et annoté par Henri Delmas de Grammont, Ed. Adolphe Jourdan, 1881, P. 168.

³⁵ Ibid., p. 169.

³⁶ B et L. Bennasser, op. cit., P. 360.

³⁷ Diègo de Haedo, *Histoire et topographie générale d'Alger*, Ed. Bouchène, 1998, pp. 64.

³⁸ محمد بن محمد بن عبد الرحمان بن الجيلاني بن رقية التلمساني، الزهرة النائرة في ما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة. مخطوط في مجموع رقم 2603، المكتبة الوطنية الحامة، الجزائر، ص 15. نقلا عن خشمون حفيظة، مهام مفتدي الأسرى والتزاماتهم الاجتماعية في مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية، بحث لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006-2007، ص. 12.

³⁹ Henri Delmas de Grammont, *La course, l'esclavage et la rédemption à Alger*, Paris 1885, p.63.

⁴⁰ Antoine, Quartier, *L'esclave religieux et ses aventures*, chez Daniel HORTEMELS, p. 8.

- جرمان مويط، رحلة الأسير مويط، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، مركز الدراسات والبحوث العلوية، 1990، ص.15.

⁴¹ M. Ben Miled, op. cit., pp. 17-21.

⁴² Latifa El Hassar-Zeghari, *Les captifs d'Alger d'après la relation de Emanuel d'Aranda jadis esclave à Alger (XVIIème siècle)*, Casbah Edition, Alger, 2004, p. 34.

⁴³ Guy Turbet Delof, *L'Afrique barbaresque dans la littérature française aux XVI et XVIIème siècle*, Librairie Droz, Genève 1973, p. 112.

⁴⁴ ميكيل دي ثريانتس، م س، ص. 70.

⁴⁵ نفسه، ص. 70.

⁴⁶ نفسه، ص. 70.

⁴⁷ نفسه، ص. 70.

⁴⁸ نفسه، ص. 340.

⁴⁹ M. Ben Miled, op. cit., p. 24.

⁵⁰ وولف جون، الجزائر و أوروبا (1830-1500)، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله،

المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص ص. 215-216.

⁵¹ منور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، الجزء 1، العملة والأسعار

والمداخيل، دار القصة للنشر، الجزائر، 2009، ص. 42.

⁵² F. Braudel, *La Méditerranée...*, op. cit., p. 205.

⁵³ A. Abi Ayyad, op. cit., p. 21.

⁵⁴ Berbery Legend: عبارة عنون بها الباحث الإنجليزي Godfrey Fisher مؤلفه الذي تناول

فيه العلاقات الإنجليزية المغربية خلال الفترة الممتدة ما بين 1415 و 1830 والذي ركز فيه

على مواضيع الحرب والقرصنة والتجارة.